المقال الثانى عشر

للاختراق حدود « وللصهينة » حدود *

اكتب هذه الأسطر العجلى بعد أن استمعت فى أحد أيام الأسبوع الماضى إلى حديث الصباح الدينى فى الإذاعة البريطانية (باللغة الإنجليزية) BBC ، والذى ألقاه واحد من أقطاب رجال الدين اليهود فى اسكتلنده. ولقد فجعنى ما انتهى إلى أذنى ، لكن بعد قليل من التدبر اتسق ما سمعته مع ما عرفته وعرفناه جميعا عن الأيديولوجية الصهيونية لشعب الله المختار . وإذا كانت الأمم المتحدة تعسفاً قد غفرت لها خطاياها العنصرية التى استحقتها عندما ساوت بين الصهيونية والعنصرية زهاء ثمانية عشر عاماً، إلا أن الصهاينة ـ كما تجلى فى ذلك الحديث ـ لا يغفرون شيئا، ولاينسون شيئا !! فماذا تضمن حديث ذلك الحاخام الإسكتلندى ؟ .

(*) مقال نشر فى أواخر عام ١٩٩٥ بمناسبة المخاطر المترتبة على محاولات إسرائيل اختراق حاجز عدم التطبيع الذى أقامه الشعب المصرى .

كان حديثه يدور حول مالاقاه اليهود من اضطهاد فى أوروبا ، وبخاصة فى ألمانيا النازية ، مما عرف باسم الهولوكوست . وكان ذلك الرجل يُذكِّر بتلك المناسبة ، ويؤكد لنا أن اليهود فى معالجتهم لتلك الأحداث لا ينسون شيئاً ولا يغفرون شيئاً ، وإنما الله هو الذى يغفر . والنص الإنجليزى ـ كما أتذكره ـ يستحق الإيراد بلغته

Towards such events, we do not forget ; we also do not forgive. It's only God who forgives .

وإذا كنا نؤمن كذلك بأن الله فى نهاية المطاف هو غافر الذنب وقابل التوب ، إلا أنه أرسى من بين أهم القيم السماوية التى ينبغى أن يمارسها البشر قيمة التسامح والصفح والمسيحية كدين تسامح واحسان تتجلى فى موعظتها الشهيرة أنه من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن . وفى الإسلام دين السماحة والمغفرة والعفو تتأكد تلك القيم فى كثير من آيات القرآن البينات . يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ». ويقول جل شأنه فى موضع آخر « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ، ويصف الأتقياء من المؤمنين بأنهم « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين». ثم استمع إلى قوله تعالى: ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ .

تلك هى بعض آيات الذكر الحكيم التى تبرز قيمة العفو والمغفرة والتسامح التى أوصى بها الله نبيه ، والتى أوجبها على عباده المؤمنين . وهذه هى القيم التى نواجه بها اليهود فى إسرائيل إذا ما رحلوا عن الأراضى العربية المحتلة ، وأرادوا أن يعم السلام القائم على العدل والاحترام المتبادل .

أما أن الأيديولوجية الصهيونية لا تنسى ، فإنها فى الواقع لا تريد أن تنسى ، لأن النسيان من خصائص الذاكرة الإنسانية ، لكن الصهاينة يجعلون مما وقع عليهم من اضطهاد فى أوربا من الزعم بأن بقاءهم وأمنهم مهدد فى وسط وطننا العربى ، ممارسة يومية ، لا فى إسرائيل وحدها ، بل فى كل مكان يوجد فيه يهودى على ظهر هذا الكوكب . وهم بذلك يحافظون على ذاتهم العنصرية الضيقة ، كما يسعون إلى استدرار العطف والتأييد والابتزاز والحصول على المعونات ، وغير ذلك من المنافع التى قد يجلبها هذا التذكير .

يقول الحاخام الإسكتلندى : إن الصهاينه لا ينسون ولا يتسامحون . ويذكرنى ذلك بأسرة البوربون الملكية فى فرنسا التى أنهت الثورة حكمها المستبد ، لأنها لم تنس شيئاً ، ولم تتعلم شيئاً جديداً ، بل ظلت متمسكة بمصالحها وامتيازاتها واستعبادها ، رغم ما طرأ على الأوضاع المجتمعين فى فرنسا إذ ذاك من متغيرات ... لاشك أيها القارىء أنك قد أدركت العلاقة بين ما قاله ذلك الحاخام وبين متطلقات شامير وغيره من الصهاينة السابقين (واحتمال اللاحقين) من أنهم لن ينسوا ذكريات

اضطهادهم، وأن إسرائيل الكبرى هى أرض ميعادهم ، وأنهم لن يجلوا عن شبر واحد من الأرض المحتلة (بل المحررة فى اعتبارهم، وأنهم لن يتسامحوا مع منطقة التحرير الفلسطينية، ولا مع غيرها من العرب الذين يطالبون بالجلاء عن أرض العرب ، وبإعطاء الشعب الفلسطينى حقه فى تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة ، وذلك رغم كل المتغيرات الفلسطينية والعربية والدولية ... بل أكثر من هذا ... فإن إسرائيل قد استغلت سلامها مع مصر لتحوله إلى نقطة ارتكاز لتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية . ولا شك أننا على وعى بما تسعى إلى اختراقه من جبهات الحصانة المصرية الاقتصادية والحضارية لتفرض قدراً من نفوذها وسيطرتها وقيمها عليه . وهذا هو ما تلح عليه بكل ضغوطها وحيلها فيما تنشده مما يسمى بتطبيق سياسة التطبيع . وقد كان لهذه المحاولات فى التطبيع والاختراق نتائج سلبية على مجمل الأوضاع العربية ، بل وعلى أوضاع المجتمع المصرى ذاته مما هو معروف ، رغم ما أشاد به بعض الكتاب من تعلمنا لكثير من فنون الزراعة والرى من خبراء إسرائيل !! .

وإذا كان ثمة « صهينة » من الدولة المجتمع فى مصر عن كثير من مخاطر تطبيع العلاقات مع إسرائيل ، فإن بعض الأحداث الجارية تفرض علينا ألا ندع الأمور تتجاوز الخط الأحمر فى مجالين رئيسيين ، هما مجال امتلاك إسرائيل للصناعة فى مصر ، سواء عن طريق المساهمة فى شراء القطاع العام، كما تتواتر الأنباء حول هذا الخطر ، بل وحتى من

خلال استثمارات إسرائيلية فى صناعات جديدة ... وفى هذا المجال نقول: للاختراق حدود .

أما المجال الثانى، فهو المجال الثقافى العلمى ، الذى تسعى إسرائيل إلى اختراقه بوسائل مختلفة، عن طريق أبحاث مشتركة، أو تبادل الزيارات العلمية، أو من خلال المشاركة فى الندوات والمؤتمرات العلمية، أو المشروعات الثقافية مع المثقفين والمؤسسات الثقافية المصرية. وحتى الآن استطاع معظم هؤلاء المصريين الالتزام بمقاطعة التطبيع مع إسرائيل ومؤسساتها ، والتمسك بذلك الموقف حتى ينتهى الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية المحتلة ، وإقامة دولة فلسطين على ترابها الوطنى .

بيد أن هذا الموقف لم يخل من ثغرات نفذ وينفذ من خلالها بعض المصريين ممن خدعوا أنفسهم بقضيه الحاجز السيكولوجى، أو دعوى السلام بأى ثمن، لأنه غاية مثلى فى حد ذاته ، ومن هذا القبيل أيضا أولئك الذين يشاركون حاليا فيما يعرف باسم «مشروع المبادرة من أجل السلام والبحث عن أرض مشتركة فى الشرق الأوسط» . . ونتساءل عن «أرض مشتركة مع من ؟ . . مع الذين اغتصبوا أرض العرب . . و باسم التوارة تارة ، وباسم الأمن تارة ثانية ، وباسم الوطن التاريخى مرة ثالثة ، وبدعاوى أخرى كثيرة مزيفة ، جسدتها فى صورة مكثفة مقولة ذلك الحاخام الاسكتلندى (لا ننسى شيئا ولا نتسامح فى شىء) !! .

وعلى الرأى العام المصرى وعلى طلائعه من المثقفين وكل الشرفاء من

الحريصين على كرامة الأمة والوطن والمواطن أن يكونوا على وعى أشد وأحد بما تحاول الصهيونية أن تنفذ إليه من أنشطة مجتمعنا بغية إفساده أو تشويهه . . إن لما حدث من اختراق حدود ... ولقد حدث الكثير من الصهينة عن تلك الاختراقات ـ لكن للصهينة عنها أيضا حدود . وقد أدى ذلك إلى الشعور بالهوان لدى كثير من المواطنين ، ولعل آخر الأمثلة ما سمعناه من سلوك جواسيس إسرائيل من آل مصراتى أمام القضاء المصرى ، ثم ماقرأناه عن إطلاق سراحهم أحراراً للعودة إلى أرضنا المغتصبة ... أى هوان بعد ذلك . . رحم الله الشاعر العربى إذ يقول :

ولا يُـقـيمُ علـى ضَـيْمٍ يُـرادُ بـه
إلاّ الأَذَلاّن عِـيـر الـحـىّ والـوتـد
هـذا علـى الخَسـفِ مربـوطٌ برُمَّتِـهِ
وذا يُشـج فـلا يرثى لـه أَحَـدُ